نُزهة المشتاق
لمعرفة الخلاق

إعداد
مايكل يوسف سلوانس

* مقدمة :

منذ زمان بعيداً كان الإنسان يبحث ويفتش عن وجود الله ، فهكذا لم ترق في نظر أخناتون فكرة تعدد الآلهة التي كانت سائدة في مصر القديمة حيث رأي أن جميع الآلهة ليست إلا صورة متعددة لإله واحد وقال عنه في أناشيده : أيها الواحد الأحد الذي لا إله غيره ، خلقت الأرض علي هواك أيها الواحد ، لك الخلق من ناس وحيوان ودابة....

وكان سقراط يتحدث كثيرًا عن " الإله " الواحد ، مخالفاً ما يتحدث به الآخرون بلفظ الجمع " الآلهة " ، وكان ينهى عن عبادة الأصنام وشدد في نهيه على الملك وقال له: إن عبادة الأصنام نافعة للملك ضارة لسقراط ، إذا كان مُقراً بأن له خالقاً يرزقه ويجازيه على ما قدم من أعمال سيئة و حسنة .

وهكذا برهن أفلاطون علي وجود الله بواسطة الحركة والنظام ، فحركة العالم حركة منتظمة لا يستطيعها العالم بذاته ، فهي معلولة لعلة عاقلة ، وهذه العلة هي الله . فيُعرف أفلاطون الله بأنه روح عاقل ، محرك ، منظم ، جميل ، خير ، عادل ، كامل . هو بسيط لا تنوع فيه ، ثابت لا يتغير ، صادق لا يكذب ، ولا يتشكل ، وهو كله حاضر مستمر ، فإن أقسام الزمان لا تلائم إلا المحسوس ونحن حينما نضيف الماضي والمستقبل إلي الجوهر الدائم ، فنقول كان وسيكون ، ندل علي أننا نجهل طبيعته ، إذ لا يلائمه سوى الحاضر ، وهو مهتم بالعالم.

ولما ذهب بولس الرسول ليكرز في أثينا رأي قوماً من الفلاسفة الذين كانوا دارسون تعاليم سقراط وأفلاطون ، فقال لهم : لأنني بينما كنت اجتاز وانظر إلى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه لإله مجهول فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادي لكم به **(اع١٧: ٢٣)**

وهوذا انيانوس الإسكافي يصرخ قائلاً : يا الله الواحد . فيشفيه القديس مارمرقس قائلا : بأسم يسوع المسيح الله الواحد يبرأ أصبعك . ففي الحال برئت يده فآمن بأسم الرب وصار أول أسقف علي مدينة الأسكندرية ...

وهكذا كان موسي الأسود يتطلع إلى الشمس التي لا يعرف غيرها إلها ويقول لها : أيتها الشمس إن كنت أنت الإله فعرفيني . وأنت أيها الإله الذي لا أعرفه عرفني ذاتك . فسمع موسي من يخبره أن رهبان برية شهيت يعرفون الله . فذهب هناك وترهب وصار قديسا....

وفي هذا الكتاب سوف نرحل معاً في رحلة وُنزهة خلوية لمعرفة الله ، حيث نذهب إلى أعماق السر .... وإلي جلية الأمر . فأنا اليوم مع رجل لم يكتف بأن يعرف أن الله موجود إنما يريد أن يعرف هذا الرب ويستجلي أسراره ..ما هو ؟ وما حقيقة العلاقة بين الإنسان والله وإلى أين تنتهي القصة ؟ أنري الله في الآخرة ؟ أيمكن أن نراه في الدنيا ؟

*** البحث عن الله :**

إن العالم كله اتجه إلى الله بالحب منذ لحظة " كن " حينما نظر الله إلى أعيان المخلوقات في العدم وأمرها بالوجود فتطلعت إليه وهامت به حباً. ولولا هذا الحب الخفي ما كانت حركة العالم وسيره ، وهكذا كثر علماء وحكماء هذا الدهر ، وكانت حكمة هذا العالم جهالة عند الله ، ولقد سار أوغسطينوس العظيم في هذا الطريق فترة طويلة ، يبحث عن الله خارجا عن نفسه فلا يجده ، ثم وجده أخيرا فناجاه بتلك الأنشودة الخالدة :

" قد تأخرت كثيرا في حبك أيها الجمال الفائق في القدم والدائم جديدا إلي الأبد " .

" كنت فيَ فكيف ذهبت أبحث عنك خارجا عني ....."

" أنت كنت معي ، ولكني لشقاوتي لم أكن معك ....."

ولما بحث أوغسطينوس عن الله في داخله ، فوجده وصار قديسا .....

وهكذا أنت يا أخي الحبيب ستضل كثيرا في بحثك عن الله ، إن بحثت عنه في الخارج . أجلس إلي نفسك وفكر وتأمل ، وأدخل إلي أعماق أعماقك ، وأطلب الله ، فستجده هناك ، وستراه وجها لوجه ، وتحسه كنبع دافق فياض من المحبة ، فتعيش في فترة من الدهش العجيب وتصرخ في فرحة صامتة " لقد رأيت الله " .

هذه هي الطريقة التي لجأ إليها آباؤنا القديسون ، خرجوا من زحمة الحياة ، ومن اضطراب العالم وصخبه ، وتركوا كل شيء ، وبحثوا عن الله في داخل نفوسهم ، وهكذا بالهذيذ والتأمل استطاعوا أن يروا الله ، ويجلسوا إليه فيحدثهم عن أسرار لا يعرفها أحد ، ويريهم ما لم تره عين .

*** الإنطلاق لمعرفة الله :**

بعدما يبحث الإنسان عن الله ، حينئذ ينطلق إلي معرفته .....

ولكن كيف أعرفك يارب وأنا أنسان محدود ، وأنت إله غير محدود ؟! بل كيف أعرفك وأنت غير المدرك ، وغير المفحوص ، أنت النور الذي لا يدني منه ، ولا يستطيع إنسان أن يراه ويعيش .....!

ولقد حاولت أن أسأل قديسيك الذين عرفوك ، أو الذين عرفوا عنك " بعض المعرفة " فأقتربت إلي بولس الرسول الذي صعد إلي السماء الثالثة ، وسألته عنك فقال أن الذي سمعه ورآه أمور " لا ينطق بها ، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم عنها " (٢كو١٢ : ٤). وكذلك يوحنا الحبيب الذي رأي بابا مفتوحاً في السماء ، وشاهد عرش الله ، لم يشرح لنا رؤياه إلا في رموز لا يمكن أن تعطي الصورة الذاتية للحقيقة كما هي .....

وأحيانا أسأل نفسي : أهي كبرياء مني أن أحاول أن أعرفك ، بينما ما أزل جاهلاً بحقيقة نفسي ، وما أزال جاهلا بكثير من الأمور البشرية والمادية ؟ إن كنت لم أعرف كنه ذاتي ، فكيف أعرف خالق هذه الذات ؟

وإن كنت لم أعرف بعد سماءك وملائكتك ، فكيف أعرف ذاتك الإلهية ؟

كل ما أعرف عنك ، هو ما تكشفه لنا من ذاتك . وأنت لا تكشف لنا إلا ما تستطيع ذاتنا أن تحتمله. لأنك إن كشفت لنا أكثر ، ستقف طبيعتنا البشرية مبهورة في دهش ، وقد وقف

عقلها عن الفهم ، وعجزت مفرداتها اللغوية عن التعبير ، وتعترف أن ما تراه هو من الأمور التي لا ينطق بها . وأنا أحاول في معرفتك أن أخرج عن نطاق الكتب بكل ما فيها من عمق ، بل أن أخرج أحيانا عن حدود معرفة العقل ، لكي أعطي للروح في انطلاقها مجالها الأوسع الذي تفوق فيه العقل بمراحل ... ولكن روحنا البشرية محدودة ... محدودة في قدراتها وفي مواهبها ، وفي معرفتها .... كما إنها تقاسي كثير من ضباب هذا الجسد المادي.

إذن متي نعرفك يارب المعرفة الحقيقية ؟

يجيب ربنا يسوع ويقول " هذه هي الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ..."

إذن فمعرفتك ليست موضوع سنين أو أيام ، وإنما طريقها هو الأبدية كلها ، الأبدية التي لا تنتهي ....

إن كان الأمر هكذا في الأبدية ، فماذا نقول إذن عن جهالتنا علي الأرض ؟ أحقا نحن نعرف شيئاً ؟

ونحن بذاتنا لا نعرف ، لكننا نريد بنعمتك أن نعد ذواتنا لمعرفتك ، وهذه المعرفة تأتي منك أنت ، بما تكشفه لنا ، ولا تأتي بمجهود عقولنا ، ولا حتي بمجهود أروحنا . إن كل جهاد عقولنا وأرواحنا مع ضرورته إنما يدخل في حقيقته تحت معني الصلاة أو التوسل ، لكي يملأ السحاب البيت ، وتشتعل النار في العليقة ويكشف الرب ذاته ... وحينئذ يسجد القلب في خشوع ، ويرتل في شكر " أعطيتني علم معرفتك " ....

هذه المعرفة الإلهية هي اللؤلؤة الكثيرة الثمن ، التي من أجلها باع التاجر كل أمواله واشتراها . ولعله من الأموال التي باعها هذا التاجر ، ما نكنزه في عقولنا من معارف بشرية متعددة تشغل كل أوقاتنا حتي لا نتفرغ لمعرفتك أنت ، وحتي لا نجلس مع مريم عند قدميك تسكب في قلوبنا ذلك الماء الحي ، الذي كل من يشربه لا يعود يعطش أيضا .....

ليتنا نسعي إلي هذه المعرفة ، ونطلبها بكل قلوبنا ، ونجدها في داخلنا ، في عمق أعماقنا ، حيث تسكن أنت ، وحيث هيكلك المقدس الذي تدشن يوم أخذنا المسحة المقدسة منك .

*** البدء في العلاقة مع الله :**

وعندما يعرف الإنسان الله ، يحبه و يرغب في إنشاء علاقة روحية مقدسة معه ....

وقد تبدأ هذه العلاقة المقدسة عن طريق حياة التوبة . واليقظة الروحية هي نقطة البدء في حياة التوبة . واليقظة الروحية تعني إستيقاظ الإنسان من الخطية ، فقد يشبهه الكتاب المقدس بالإنسان النائم الذي لا يدري بذاته ولا حالته . كقول الرسول " إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم " (رو١٣ :١١) . عجيب أن الله يريدنا ، ونحن لا نريده ، عجيب أن ننشغل عن أخلص حبيب يكلمنا ، ونحن لا نجيب . يدعونا إليه فلا نستجيب عجيب هذا حقاً عجيب . وفي هذا يتأمل الشيخ الروحاني قائلاً : " ويلي هذا كله تحملته من أجلي وتعبت ، وأنا لا شيء من هذا تحملته من أجلك يا سيد ... متي أظهر محبتي لله ؟ يجب لي أن أشقي من أجله لأنه تعب من أجلي ، فليكن آلامه لى شرابا دائما ليعطيني نظره غذاء دائما ، لا ينبغي لى أن أبدل خالق العالمين بعالم زائل ، مأكولي ليكن مخلوطا بالوجع من أجله وشربي بالدموع أمزج ،

إني أفتضح من رب الكل ، إنه لم يقتن بيتا ولا مأوي ، وأنا أجعل لى مسكنا حسن المنظر ، هو وخاصته لم يملكوا طعام يوم ، وأنا لسنين أضع لي رزقا بالطير والسوسن ، وعلمني أن أصلي في البرية وفي الجبال ". لذلك ما أجمل حياة الرهبان القديسين الذين قطعوا من قلوبهم كل محبة أخري غير الله ، وجعلوا شعارهم الإنحلال من الكل ، للإرتباط بالواحد (الذي هو الله) . هؤلاء أحبوا الله ، أكثر من كل محبة أخري مهما كانت بريئة ، أحبوه أكثر من الأب والأم والأهل والأقارب ، بل حتي أكثر من أنفسهم ، حسب الوصية الإلهية (مت ١٠ :٢٧ – ٣٩) وكأن كل واحد منهم يقول لله : لا أريد محبة أخري تشغلني عن التفرغ لك . فليس لي سواك أنت الذي تشغل فكري وقلبي ، وتشغل حياتي ووقتي ، وتشغل حواسي وعواطفي . أنت شغلي الشاغل قلبي ملآن بك ، وفرحان بك ، ولا يعوزه أحد غيرك . لا يوجد فراغ يتسع لأحد غيرك . هذه مشاعر القديسين سكان البراري . إن الإنسان الذي يتيقظ روحياً ، كثيراً ما تشعل اليقظة قلبه بحرارة ملتهبة ، تدفعه إلى قدام فتعطيه اتضاعاً عجيباً وإنسحاق قلب ، كما تعطيه إلتصاقاً دائما بالله في صلوات حارة . وإذا بكل عواطفه تتحول جميعها وتتجه إلي الله في قوة . إنها حرارة روحية تدخل في الصوم والصلاة والجهاد الروحي والنسك والخدمة . وكثيراً ما ينذر الإنسان التائب نفسه للرب ، وبهذا أتحول كثير من الخطاة التائبين إلي قديسين مثل القديس أوغسطينوس والقديس موسي الأسود .....

+ وهناك أسلوبان في حياة التوبة ، وفي العلاقة بين الله والإنسان :

١- أن يأتي الإنسان إلى الله فيقبله.....

وذلك حسب وعد الله الصادق " من يقبل إلىَ ، لا أخرجه خارجاً "(يو٦ :٣٧). وهذا هو الذي حدث للإبن الضال : شعر بسوء حالته ، وقال أقوم وأذهب إلى أبي . وفعلا ذهب إليه ، فقبله أبوه فرحاً (لو١٥ :١٧- ٢٤) .ويطلب الله منا هذه التوبة وهذا الرجوع إليه ، فيقول " ارجعوا إليَ فأرجع إليكم " (ملا ٣ :٧) .

٢- الأسلوب الثاني : أن يبدأ الله العلاقة مع الإنسان :

هو الذي يذهب إليه . يسعي إلي خلاصه ، كما سعي وراء الخروف الضال حتي وجده وحمله علي منكبيه فرحاً (لو ١٥ :٤، ٥) . وعن هذه المبادرة الإلهية ، يقول " أنا واقف علي الباب أقرع . من يفتح لي ، أدخل وأتعشي معه ، وهو معي " (رؤ٣ :٢٠) . وقد يسمي الآباء هذا الأسلوب بزيارة النعمة .....

*** زيارة النعمة :**

حقاً كما قال الرب في الإنجيل المقدس " إن ملكوت الله لا يأتي بمراقبه " (لو١٧ :٢٠) . الروح يهب حيث يشاء ....

نحن لا نعلم متي يتحدث الله إلينا ، متي يعلن لنا ذاته ، متي تزورنا نعمته ، متي نجد أنفسنا أمام الله . إنما في وقت لا نعلمه ، يعمل الله في قلوبنا من حيث لا ندري ، ويشعرنا بوجوده. وهكذا فعل مع القديسين . في وقت ما كان يتوقعه موسي النبي ، وبطريقة لم تخطر له على بال ، كلمه الله من النار المشتعلة في العليقة ، وأعلن له ذاته ، وأرسله ليخلص الشعب (خر٣) في وقت ما ، كلم الله أبانا إبرام ودعاه للحياة معه (تك١٢) .

وجد إبرام نفسه أمام الله دون أن يسعي إلي ذلك ، ودون أن يخطر له هذا على بال . كذلك صموئيل النبي وهو طفل ، ما كان ينتظر مطلقاً ، أن يكون له حديث مع الله ، وأن يختاره لرسالة معينة أو لنبوة ، ولكنه وجد نفسه أمام الله في وقت لا يعلمه ولا يتوقعه . وبنفس الأسلوب ، شاول الطرسوسي في طريق دمشق ، وجد نفسه أمام النور ، وأمام دعوة ، وأمام عتاب ، وأمام المسيح شخصياً . وصار رسولاً من حيث لا يدري ، بل وفي عكس الطريق الذى انتهجه لنفسه ....

في وقت غير معروف ، تفتقد النعمة قلب إنسان فتشعله . كما هو مطلوب منه ، أن يتجاوب ويستغل الفرصة . أنت لا تدري متي يطرق الله علي بابك . كل ما تدريه أنك إن سمعت صوته لا تقسي قلبك ، بل تفتح بابك مباشرة ، وتقول له في حب : تعال أيها الرب يسوع . مشكلة عذراء النشيد ، إنها لم تفتح للرب ، حينما أتاها ظافراً علي الجبال وقافزاً علي التلال ولا حينما مد يده من الكوة . لذلك قالت في ألم شديد : " حبيبي تحول وعبر . نفسي خرجت حينما أدبر . طلبته فما وجدته . دعوته فما أجابني " (نش٥ :٢ -٦) .

في فترات زيارة النعمة ، يشعر الإنسان بوجود الله معه . يشعر بحرارة غير عادية ، وإقتراب قلبه إلي إلهه ، وبحب عجيب للرب وملكوته ، وبرغبة في الصلاة ، وعمق في التأمل ، كما يشعر بسيطرته علي فكره وتوجيهه توجيهاً روحياً . وفي هذا يقول القديس مار يوحنا سابا الملقب بالشيخ الروحاني : " إذا حلت النعمة علي المتوحد في البداية تفعل فيه حسيات ونياحات وعزاءات غير معلومة ، وأولاً فأولاً تنمي عقله بنياحات وافتقادات ومناظر واستعلانات ، حتي أنه في غمام النور الكائن يستند بلا عبور من هناك ، وفيها يبصر ويستضيء من شعاع النور الذي من اللاهوتية الذي يضيء عليه ، وبه يتعالي ويتداخل يوما فيوما بقدر همته وحفظه من مجد إلي مجد بيد الرب بالروح ، وبغيارات متشبهة بالشبه الذي ليس له شبيه ، بإتحاد وخلطة تامة بالله ، ونظر ومعرفة مجده العالي عن العالمين ، بغير نظر ولا معرفة ينظر ويعرف ...." .

إنه ليس بجهدنا نكون مع الرب ، إنما بحنانه ووجوده .

من أجل محبته لبني البشر ، من أجل عدم مشيئته أن يموت الخاطيء .

من أجل رعايته وعنايته وأبوته ، يفتقدنا بوجوده معنا ، حتي دون طلب منا ، كما فعل مع تلميذي عمواس ومع شاول الطرسوسي . تبارك الرب في عظم محبته . له المجد من الآن وإلي الأبد آمين .

*** طبيعة العلاقة مع الله :**

وعندما ينجح الإنسان في إقامة العلاقة الروحية بينه وبين الله ، عندئذ يكتشف طبيعة تلك العلاقة المقدسة ....

إنها علاقة محبة لأن الله محبة ، وفي محبته لنا دعانا أبناء له .... ويتغني القديس يوحنا الرسول بهذه الحقيقة فيقول " أنظروا أية محبة أعطانا الآب ، حتي ندعي أولاد الله " (١يو٣ :١) وأصبحنا حينما نصلي ، نوجه صلواتنا إلي هذا الآب السماوي ، ونقول له " يا أبانا الذي في السموات " . حتي جاء السيد المسيح فأظهرها بجلاء ووضوح ..... أنظروا كيف أن الله

يعاتب البشر في العهد القديم فيقول " ربيت بنين ونشأتهم ، أما هم فعصوا علـيَ" (أش١ :٢) وكأب في العهد القديم ، يخاطب الإنسان " يا أبنـي أعطنـي قلبك " (أم ٢٣ :٢٦) . وقد أدرك أشعياء النبي أبوة الله ، فقال لـه " تطلع من السماء ، وأنظر من مسكن قدسك ، فإنك أنت أبونـا ... وكلنـا عمل يديك "(أش٦٤ :٨) . إذن فنحن حينما نتواجد مع الله ، نتواجد مع أب يحبنا .... ونقضي الوقت معه ، كما يسلك الأبناء مع أبيهم المحب لهم ، بنفس الدالة التي للأبناء . ومن الناحية الأخرى حينما نخطيء نشعر ليس مجرد شعور العبيد الذين يخافون العقوبة ، بل بالأكثر شعور الأبناء الذين يؤلمهم ويحزنهم أنهم جرحوا قلب أبيهم المحب ، وتباعدوا عنه بالمعصية ، فيسرعون لمصالحته ليوجدوا في كل حين معه ..... فإن كنت تحب الله من كل قلبك ، وتحب طرقه ، وتحب وصاياه ، حينئذ سيعطيك الله حسب قلبك ، وسيكون الله ساكناً في قلبك . (تث٦ :٥) . كما سكن من قبل في قلوب أنبياءه القديسين ، أسمع ما يقوله معلمنا داود " باركي يا نفسي الرب ، ولا تنسي جميع إحساناته" (مز١٠٣ :٢). إنه من نوع أبينا يعقوب الذي يمسك بالرب ، ولا يتركه حتي يباركه ويعطيه ما يطلب. وحينما يطمئن قلبه ، يقول له " نعترف لك يارب بخلاصك " .
نعترف يارب أنك خلصتنا ، وأرحت قلوبنا ، وطيبت خاطرنا . وأنقذتنا من مشاكلنا . وهنا نري أن داود لم يكتف بالشكر علي الخلاص ، إنما أتسع في آماله فقال : وبإسم إلهنا ننمو كان يطلب مجرد الخلاص . وعندما شعر بالإيمان أنه قد نال هذا الخلاص ، فقد انتقل إلي ما هو أبعد .... إلى النمو والإزدياد . فقال : وبإسم إلهنا ننمو .....
فمن أسباب إطمئنان داود أن اسم الله علي شفتيه بإستمرار . ليتك في صلاتك تذكر هذا النمو ، وتحاسب نفسك عليه . تنمو في محبتك لله والناس . وكلما تنمو في القداسة ، تنمو أيضا في الإتضاع . وتقول " لست أحسب إني أدركت أو نلت شيئاً... لكنني أسعي لعلي أدرك " . (في ٣ : ١٢) . وداود لم يطلب الخلاص فقط ، وإنما طلب النمو أيضا ، النمو الموصل إلي الكمال . وقال له قلبه " يكمل الرب كل سؤالك " . جيد أن نطلب من الله التوبة ويعطيها لنا . ولكن الأجمل من هذا أن الملائكة تصلي من أجلنا حتي يكمل الرب كل سؤالنا . لأن التوبة ليست كل شيء ، هناك النقاوة والقداسة . وفي القداسة تسمع أيضاً نفس الطلبة " يكمل الرب " ، لأن الطريق ما يزال طويلاً أمامك ، فأنت مطالب بالكمال " كونوا كاملين ، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل " . والكمال ليس له حدود . لذلك تستمر في السؤال ، ويكمل الرب كل سؤالك .
- هو الساكن في الأعالي ، والناظر إلي المتواضعات " ينظر إلي عمل يديه ، ويقيم المسكين من التراب والبائسين من المزبلة " . إنه يخلص بإستمرار ، لأنه يريد أن الجميع يخلصون . وقد أدرك المرتل هذه الحقيقة فقال " من أجل شقاء المساكين وتنهد البائسين ، الآن أقوم يقول الرب أصنع الخلاص علانية " (مز١١) .
هو في سمائه ولكنه ليس بعيداً عنا ، بل " قريب هو الرب من منسحقي القلب ". يستجيب لهم من سماء قدسه ، هذا السماء التي يتطلعون إليها كلما يقولون " أبانا الذي في السموات " وكيف يستجيب لهم ، يقول المرتل بجبروت خلاص يمينه .

لذلك قل بإستمرار مع المرتل : قوتي وتسبحتي هو الرب ، وقد صار لي خلاصاً .
ومن محبة الله لنا ، دعا النفس التي تحبه عروساً له ، كما جاء في سفر نشيد الأناشيد ، بل وأكثر من هذا أن الله ونحن كيان واحد ، كالرأس والجسد ... حقاً ، هذا السر عظيم ! إن الرب لم يفصلنا عنه . فنحن جسده وهو رأسنا . المسيح هو رأس الكنيسة (أف٥ :٣) . ورأس كل رجل هو المسيح (١كو١١ :٣) وأجسادنا هي أعضاء المسيح (١كو٦ :١٥) . ونحن " أعضاء جسمه ، من لحمه ومن عظامه " (أف٥ :٣٠) . إنني أقف هنا مذهولاً أمام هذه العبارات العجيبة التي أراد بها الوحي الإلهي توضيح علاقتنا بالمسيح ووحدتنا معه. ويقول السيد المسيح " اثبتوا فيَ ، وأنا فيكم ... أنا الكرمة ، وأنتم الأغصان " (يو١٥) . الكرمة والأغصان كيان واحد ، كالرأس والجسد ... إذن أكثر من الوجود في الله ، الثبات في الله ... لذا قال الشاعر جبران خليل : لا تقل الله في قلبي بل قل أنا في قلب الله " . وهناك ٤ وسائط للثبوت في الله هي : الإيمان ، والمحبة ، والتناول من جسده ودمه ، وحفظ وصاياه . (١يو٤ :١٥) ، (١يو٤ :١٦) ، (يو٦ :٥٦) ، (١يو٣ :٢٤) . إن الوجود مع الله ، هو الوجود في الله .... أو هو وجود الله فينا ... كقول السيد الرب للآب " أنا فيهم ، وأنت فيَ، ليكونوا فيَ مكملين إلي واحد " (يو١٧ :٢٣) . إن الذي يحب الله بعمق ، يصل إلي درجة الإكتفاء بالله ... الله يملأ قلبه وفكره وكل أحاسيسه ومشاعره ، ويشبعه فيشعر بالإكتفاء ، ويقول مع داود " فلا يعوزني شيء " (مز٢٣ :١) . ويشعر أنه لا يستطيع أن يضيف شيئاً في قلبه إلي جوار الله . فيعيش سعيداً مع الله ، ويقول له في حب " معك لا أريد شيئاً علي الأرض " . (مز٧٣ :٢٥) . بهذا المثال عاش آباؤنا القديسون ، وقد أشبع الله حياتهم . حقاً إن الذي يحب الله يصغر كل شيء في عينيه .

*** العلاقة الخفية :**

ولما كانت علاقة الله بالإنسان علاقة محبة وأبوة ، كانت علاقة تتسم بالتحفظ والسرية التامة فالله لا يبوح بأسراره لكل أحد .....
أنه ظهر لتلميذي عمواس ولكنه قد أمسك أعينهما عن معرفته ولم يدركا أنه هو ، إلا بعد اختفائه عنهما ! (لو٢٤ :١٦، ٣٢) .
وفي فترة الأربعين يوماً المقدسة التي قضاها المسيح مع تلاميذه ، لم يسجل الكتاب ما دار في هذه الأيام من مشاعر ومن أحاديث ، إنما جعلها في سفر أعمال الرسل في عبارة بسيطة أما الأناجيل فأشارت بالأكثر إلي شكوك التلاميذ وضعفاتهم وكيف عالجها الرب . ولم تذكر لنا حتي تفاصيل يوم واحد من الأربعين يوماً .....
إن حياة الحب والعشرة مع الله ، هي قدس أقداس ، يليق بها الصمت . والحديث عنها تعليم غير كتابي : مريم أخت لعازر اختارت النصيب الأفضل ، وجلست عند قدمي المسيح ، تتأمله ، وتستمع إليه . ولكنها لم تذكر شيئاً من كل هذا ، ولا سجل الكتاب شيئاً منه ، إنه قدس أقداس .....
وموسي النبي قضي مع الرب أربعين يوماً علي الجبل ، دون أن يحكي ماذا قال له الرب فيها ، وما أعماق تلك العشرة .....

وأخنوخ الذي لم يمت ، سجلت حياته كلها في عبارة واحدة تقريباً هي " وسار أخنوخ مع الله ، ولم يوجد لأن الله أخذه " (تك ٥ :٢٤) . ولم يشرح الكتاب كيف سار أخنوخ مع الرب ، ولا أخنوخ تحدث عن هذا إنه قدس أقداس .....

وبولس الرسول صعد إلي السماء الثالثة ، ولكنه لما نزل ما قص علينا شيئاً مما رآه ، بل قال إنه " سمع كلمات لا ينطق بها ، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها " (٢كو ١٢ :٤) . لماذا يا معلمنا بولس العظيم لا تحكي لنا أختباراتك ، مبارك هو صمتك . إنه أيضاً قدس أقداس . بل أكثر من هذا مريم العذراء ، في كل عشرتها مع المسيح ، لعلنا نقول : ليتها حكت لنا تلك الثلاثين سنة التي عاشها المسيح قبل خدمته الجهارية ، تلك التي ختم عليها بالصمت .... لقد صمتت العذراء . وكانت تحفظ كل هذه الأمور متأملة بها في قلبها (لو٢ :٥١) .

إن الصمت وليس الكلام ، هو الذي يليق بالروحيات والحب الإلهي والعشرة مع الله ، مثلها صمت التاريخ عن تأملات القديس الأنبا بولا السائح خلال ثمانين عاماً في الوحدة . هكذا صمت التلاميذ عن الأربعين يوماً . وما حدثهم المسيح عنه من الأمور المختصة بملكوت الله ، ظهر في حياتهم وممارساتهم ، ووصل إلينا بالتقليد ، أكثر مما وصل بالكلام . ولعلك تقول : لماذا لم يتكلم هؤلاء جميعاً ، لنتعلم من حياتهم ؟ أقول لك : عش مثلهم ، وأنت تعرف حينئذ ما أخفوه .

إجلس عند قدمي المسيح ، مثلما جلست مريم ، وحينئذ سيقول لك ما قاله لها ، أو ما يناسبك من أحاديث أخري ....

وإن أحببت المسيح ، كما أحبه الرسل ، وتركوا كل شيء وتبعوه ، فحينئذ سيحدثك مثلهم عن الأمور المختصة بملكوت الله ، ليس فقط علي مدي أربعين يوماً ، وإنما طول الحياة . أفتح قلبك لله ، وهو يملؤه حباً . وأفتح ذهنك له ، وهو يضع فيه أجمل الأحاديث . عش معه بكلياتك ، يفض عليك من مواهبه ونعمه وقوته ، أما إن أردت أن يحدثك الرب وأن يعطيك ، لكي تشرح للآخرين وتحكي ، فإنك تكون قد خرجت من سرية الحب ، وبدلاً من المخدع المغلق صرت تبوق قدامك بالبوق .

أما إن أحتفظت بقدسية العلاقة وسريتها ، فإن الرب يقول عنك " أختي العروس جنة مغلقة ، عين مقفلة ، ينبوع مختوم " (نش٤ :١٢).

*** يستجيب لك الرب :**

لذلك ما كان داود يكلم الله فقط ، إنما كان يكلمه ، ويسمع صوته ، أعني يسمع صوت إستجابته بالإيمان . أنظروا إليه ماذا يقول " إني أسمع ما يتكلم به الرب الإله . لأنه يتكلم بالسلام لشعبه ولقديسيه وللذين رجعوا إليه بكل قلوبهم " .

هو إله يعقوب ، هو إله الضعفاء العاجزين عن حماية أنفسهم .

إله الودعاء إذا وقفوا أمام الأقوياء المعتزين بقوتهم .

إله العصفور ، إذا نصبت في طريقه فخاخ الصيادين .

إله أبينا أنطونيوس الذي تهجم عليه الشياطين ، فيقول لهم في إنسحاق " إني أضعف من أن أقاتل أصغركم " . ينصرك إله العاجزين والمساكين ، إن وقفت أمامه ضعيفاً مثلهم . هذا

الذي جاء ليحمل أوجاعنا ، وليس فقط خطايانا (أش ٥٣ : ٤) . لا يترك أبدا كل من هم في تعب ، بل يقف إلي جوارهم يسندهم . وقد قال للكل " تعالوا إلي َيا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم " . أليس هو الذي تحنن لما رأي الناس " منطرحين ومنزعجين ، كغنم لا راعي لها " . إن اسم الله له قوته وهيبته وفعله ، لذلك يقول الحكيم :" اسم الرب برج حصين ، يركض إليه الصديق ويتمنع " (أم١٨ :١٠) . وقد رجع التلاميذ إلي الرب فرحين وقالوا له : حتي الشياطين تخضع لنا بأسمك " (لو ١٠ : ١٧) .
إذن أجعل اسم الرب علي فمك بإستمرار ، ليعطيك الرب قوة وعزاء .
إننا نتعب في حياتنا ، إن بعدنا عن اسم الرب ، وبالتالي بعدنا عن الشعور بوجوده معنا وعمله لأجلنا ، لذلك يقول داود : " محبوب هو أسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتي " (مز ١١٩) . كان يتلو اسم الرب ، فيشعر بفرح ، ويشعر أن الرب معه ، وأن الرب يستجيب له في يوم شدته ، وينصره بقول المزمور " يرسل لك عونا من قدسه ومن صهيون يعضدك . وفي أول صلاة الشكر ، إذ نقول " فلنشكر صانع الخيرات الرحوم الله ... لأنه أعاننا " . إنه عون مستمر ، نذكره كل يوم وكل ساعة .

*** حبك أطيب من الخمر :**

ولما كان الحب هو تبادل مشاعر بين طرفين ، أي الله والإنسان وأن الله غير محدود ، والإنسان محدود ، جعل الإنسان سكران ومتيم بحبه ....
ففي قصة اسطفانوس رئيس الشمامسة وأول الشهداء حينما أقترب من الموت يقول عنه الكتاب في تلك اللحظات إنهم شخصوا إليه " ورأوا وجهه كوجه ملاك " (أع٦ :١٥) . إنه لم يهتم بكم العدد الذي يرجمه ، ولم يُبالي بتلك الجراحات وهذه الآلام . بل شخص إلي السماء وهو ممتليء من الروح القدس ، فرأي مجد الله ... وقال " ها أنا أنظر السموات مفتوحة ، وابن الإنسان قائماً عن يمين الله " (أع٧ :٥٥، ٥٦) . وبهذا الفرح انتقل إلي الوجود الدائم مع الله.

وفي قصة الشهيدتين بربتوا وفيليستي ، لقد قدموهما إلي بقرة متوحشة ، فبعدما صرعتهما ، كانت إصابة بربتوا قليلة ، أما إصابة فيليستي فكانت قاتلة ، فقامت بربتوا لتساعد فيليستي وقالت لها وكأنها في حلم : متي سيقدمونا للبقرة ؟! أين كانت بربتوا عندما كانت لا تدري وقد قذفتها البقرة المتوحشة ؟ وتسأل عن شيء قد حدث بالفعل ؟! أين كانت ؟ وماذا كانت تري حتي يمنعها من أن تشعر بمثل هذه الآلام ؟ ما هذا الحب الذي سلب عقلها ؟ ما هي هذه المناظر الروحية التي رأتها حتي جعلتها لا تدري من أي كأس تشرب ، وهي مازالت في هذا الجسد ومثقلة بأطرافه الميتة ، وبأعضائه الفانية ؟

ما هذه المحبة ومن أي نوع هي التي جعلت الكثيرين يتركوا بيوتهم وجميع أموالهم وعدموا خيرات الدنيا يرقدون علي الأرض ويسهرون الليل ويصومون بنسك علي أنواع كثيرة معذبين متضايقين متألمين تائهين في البراري والمغاير وشقوق الأرض ، هؤلاء الذين نطق بولس الرسول الطاهر من أجلهم قائلا أن العالم لم يكن مستحقاً لهم .....

تعال فإني مريض حباً . بعدي عنك موت لي ، وذكرك يحي نفسي . رائحتك تعيد لي قوتي وذكراك يخفف آلامي ، ظهورك شبع لي (مز١٧ :١٠).
يا حياة نفسي قلبي يجري وراءك ، ويذوب عند تذكر خيراتك .
إلهي يسوع إستلم حياتي فأنت حياتي ، إجذب قلبي ، فأنت هو فرحي ، أيها الغذاء الدسم كن أنت شبعي ، أيها القائد الإلهي قوني ، أيها النور الحقيقي الذي يضيء عيناي أنر لي ، أيها اللحن العذب إطرب كل نفسي ، أيها الرائحة السمائي إنعشني بك ، يا كلمة الله ثبتني فيك .
آه إنني لن أشبع إلا عندما يتجلي مجدك قدامي .
حقاً إن فيك الحُسن ، يا من وحدك سرمدي وسام وكامل علي الدوام ....
من يجد آثارك لن يضل قط ، من يصل إليك لا يلحقه يأس ، من يمتلكك تشبع كل رغباته ، لكن يا لبشاعة بؤسي ويحي يا إلهي ، فإن قلبي يميل إلي الهروب منك . الهروب منك أنت أيها الغني الحقيقي والفرح الحقيقي ، لكي يتبع العالم الذي ليس فيه إلا الحزن والألم .....
+ ويتأمل القديس أوغسطينوس في الله قائلاً له : " إلهي إني أحبك وشوقي هو أن تزداد محبتي لك علي الدوام . بالحقيقة أنت أحلي من الشهد وأفضل من اللبن ، وأكثر ضياء من كل نور.الذهب والفضة والأحجار الكريمة لا تقارن بك في داخل قلبي .
كل مسرات العالم لا تظهر لي إلا كرائحة كريهة وبلا طعم . إذ قد تذوقت عذوبتك مرة ، ورأيت جمال بيتك .
أيُها النار الإلهي ، يا من لهيبك لا ينقطع بل دائم الحرارة ، أيها الحب الدائم الحرارة ، يا من لا تفتر قط ، أيها الحب الإلهي احتضني ، أمتلكني بكليتي فألتصق بك تماماً ليتني أحبك يا إلهي لأنك أحببتني أولا " .
+ ويقول الشيخ الروحاني :
آه ما أعجب خفاياك يا إلهنا . وما أعظم من يؤمن بها . نسيت ذاتي بذكر هؤلاء القديسين ، الذين لست أنا واحد منهم . أجاهد أن أمسك الله القدوس فلا يُمسَك...
أصوره فلا يتصور. وإذ أنا ساكن فيه ، في َيسكن . وإذ هو مُخفي عني ، أنا مُخفي فيه . وإذ أردت أن أطلبه أبصره داخلي . ومن أي موضع وإلي أي موضع أذهب به لا يتركني . وإذ أنصت إليه يتكلم معي . السبح لك ، أنك مخفي عن الكل ولمحبيك تشرق بلا إنقطاع .....

*** الوجود مع الله :**

ولما سكر الإنسان بحب الله ، أخذ يجري ورائه ويطلبه وأشتهي أن يكون معه في كل حين (١تس ٤ : ١٧، ١٨) . حقاً إن الوجود كل حين مع الرب هو " ما لم تره عين ، وما لم تسمع به إذن ، ولم يخطر علي قلب بشر " .
ما أجمل أن الرب في التجلي ، لم يكن وحده .....
ظهر معه في هذا التجلي موسي وإيليا ، رمزاً للمتزوجين والبتولين ، ورمزاً للذين ماتوا والذين لم يموتوا بعد ، ورمزا لأهل الوداعة يمثلهم موسي (عد١٢ :٣) ، وأهل الحزم يمثلهم إيليا (١مل ١٨ :٤٠) . الكل مع الرب علي جبل التجلي . ولكي تكمل الصورة ، في حادثة

التجلي . قال الكتاب إن الرب أخذ معه إلي الجبل بطرس ويعقوب ويوحنا (متي ١٧ :١) فكانوا معه ، رأوا هذا المجد ، وسمعوا الصوت من السحابة .....
ومجد التجلي ، يذكرنا أيضاً بأورشليم السمائية ، حيث نري الله يسكن مع شعبه . وفي ذلك يقول القديس يوحنا الرائي : وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً : " هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم " . " وهم يكونون له شعباً . والله نفسه يكون معهم ، إلهاً لهم " (رؤ٢١ :٣) . إنها نفس الصورة القديمة لخيمة الإجتماع " الله وسط شعبه " . ولكنها هنا في مجد وحب وبر ، حيث لا خطية من الناس تحتاج إلي ذبيحة ، بل الكل طاهر .....
فالوجود مع الله شهوة في القلب النقي . و الإنسان الروحي يشتاق أن يوجد بإستمرار مع الله لذلك نجد داود النبي يقول " كما يشتاق الإيل إلي جداول المياه ، كذلك إشتاقت نفسي إليك يا الله ، عطشت نفسي إلي الله ، إلي الإله الحي . متي أجيء وأتراءي قدام الله " (مز٤٢ :١، ٢) " يا الله ، أنت إلهي ، إليك أبكر . عطشت نفسي إليك ... بأسمك أرفع يدي ، فتشبع نفسي كأنها من شحم ودسم " (مز٦٢) . " إليك يارب رفعت نفسي . إياك أنتظرت النهار كله (مز٢٤) . " طلبت وجهك ، ولوجهك يارب ألتمس . لا تحجب وجهك عني " (مز٢٦). " ألتحقت نفسي ورائك " (مز٦٢) أي جرت وراءك . وكما يشتاق المرتل إلي الله ، يشتاق إلي كل ما يتعلق به ، اسمه ، بيته ، وصاياه .... يقول " محبوب هو اسمك يارب ، فهو طول النهار تلاوتي " (مز١١٨) . ونقول في الأبصلمودية " أسمك حلو ومبارك ، في أفواه قديسيك " . وعن كلام الرب يقول " وجدت كلامك كالشهد فأكلته " ، " كلماتك حلوة في حلقي . أحلي من العسل والشهد في فمي " (مز١١٨) . وعن بيت الرب يقول " فرحت بالقائلين لي إلي بيت الرب نذهب " (مز١٢١ :١) . " تشتاق وتذوب نفسي للدخول إلي ديار الرب " (مز٨٣ :٢) . " واحدة طلبت من الرب وإياها ألتمس ، أن أسكن في بيت الرب كل أيام حياتي ، لكي أنظر إلي نعيم الرب ، وأتفرس في هيكله " (مز٢٦) . إن الإنسان الذي يحب الله ، يشتاق أن يكون معه في كل حين ، ناموسه هو درسه ، وصاياه هي تلاوته ، محبته هي الغذاء التي تتغذي به الروح ، ويتغذي به الفكر .... هوذا داود النبي يقول " تأملت فرأيت الرب أمامي في كل حين ، لأنه عن يميني فلا أتزعزع " (مز١٦ :٨) . الرب أمامه ، والرب عن يمينه ، يحيط به من كل ناحية ، فما تأثير هذه عليه إذن . يقول بعد ذلك مباشرة " من أجل هذا فرح قلبي وتهلل لساني . وأيضاً جسدي يسكن علي الرجاء " "عرفتني سبل الحياة . تملأني فرحا مع وجهك " .... إنه يشعر بوجود الله معه ، هنا وفي الأبدية ، لذلك يقول أيضاً" إن سرت في وادي ظل الموت ،لا أخاف شراً ،لأنك أنت معي " (مز٢٢) . ما أجمل شعور المؤمن بأن الله معه ، حتي في وادي ظل الموت .

*** مشاعر الوجود مع الله :**

وهكذا حاول الإنسان أن يصف مشاعره أثناء وجوده مع الله ، لكنه عجز عن ذلك إذ إنها مشاعر تحس ولا تصف ، فلم يجد في اللغة البشرية سوي تلك الكلمات القليلة التي تحاول أن تظهر لنا شعاع ضئيلاً عن تلك المشاعر المتمثلة في الحب والفرح والسلام .....

وهذه المشاعر قد تجعل النفس ترتفع إلي فوق ، في مستوي أعلي من هذا العالم ، وأسمي من الماديات . ويتغني مع داود " أما أنا فخير لي الإلتصاق بالرب " (مز٧٣ :٢٨) . ويود أن يبقي هكذا ، لا يفارقه ولا ينفصل عنه . يفرح أنه وجد الله ، فتتعلق به نفسه ويقول مع عذراء النشيد " أمسكته ولم أرخه " (نش٣ :٤) . ويود أن تدوم حياته في هذا اللقاء مع الله والإحساس بوجوده . فيصيح من أعماقه مع بولس الرسول : من سيفصلنا عن محبة المسيح ؟! (رو٨ :٣٥ -٣٩) . إن مشاعر الوجود مع الله ، مشاعر لا ينطق بها .....
تحسها ، وإن أردت أن تصفها ، لا تستطيع ... تصل أحياناً إلي مرحلة يبهر فيها الإنسان ويذهل .... فإن أستيقظ يشعر بفرح يغمره ، ويشعر بميل إلي الصمت ، لا يريد أن يخرج من إحساساته الداخلية إلي مستوي الحديث مع الناس .....
هذا هو الوجود مع الله ، حب في حب ، قلب بشري يتلامس مع الله .....
قلب محدود يتلامس مع القلب غير المحدود . وحب بسيط يتقابل مع حب لا نهائي . نحن في حياتنا مع الله ، مثل الجدول البسيط الذي يسير حتي يلتقي بالبحر ويصب فيه ، ويختلط بمياهه التي لا تنتهي . نحن قطرة ماء ، تسخن بحرارة الحب ، وتتبخر فترتفع ، لكي تنزل إلي أعماق النهر الكبير ... حياتنا مع الله حياة حب .
وما أروع تلك العبارة التي قالها بولس الرسول " لأن جميعكم الذين أعتمدتم بالمسيح ، قد لبستم المسيح " (غل٣ :٢٧) .... وأمام عبارة " لبستم المسيح " أقف مبهوراً ، أحاول أن أتشرب المعني علي مهل ، بالروح لا بالعقل . إن الشعور بوجود الله ، يملأ القلب فرحاً . كقول الرسول : أفرحوا في الرب كل حين ، وأقول أيضاً أفرحوا .(في٤ :٤) . بل إن كل من يوجد في حضرة الله ، يشعر بسلام عميق كقول السيد المسيح " سلامي أترك لكم سلامي أنا أعطيكم " . (يو١٤ :٢٧) . وفي ذلك يقول القديس أوغسطينوس للرب " ستظل قلوبنا في قلق ، إلي أن تجد راحتها فيك " .

*** صفات الله :**

أحيانا تحب إنساناً لأن صفة معينة فيه تجذبك إليه . كأن يكون إنساناً شهماً ، أو خفيف الظل مرحاً ، أو يكون إنساناً خدوماً ، أو قوي الشخصية ، أو ذكياً ... إنها صفة واحدة تجذبك ..... فكم بالأولي الله الذي تجتمع فيه كل الصفات الجميلة ، وعلي درجة غير محدودة من الكمال .....!!
والله خلق الإنسان علي صورته " علي مقتضي صفاته " فأنت تعرف وحدانية الله من وحدانيتك . فأنت واحد وأنت كثرة ، وأنت ظاهر وأنت باطن ، وأنت حي تتكلم تسمع تبصر وترأف وترحم . مع الفارق أن صفات الله حق لله مستعارة للإنسان ، فهي لله بحكم الأصل ثم سري حكمها فينا "حسب استعداد قوابل نفوسنا لها " بحكم الخلق علي لصورة .....
ولهذا لا يحق لأحد أن يقول إنه رؤوف وحليم من عند نفسه وإنما من فضل إلهه .... إن الله ليس كمثله شيء وحضرته الإلهية لا يماثلها شيء ولا يشبهها شيء وليس لها كيف وكم ومقدار ولا مكان ولا زمان .....
ولاشك أنك كلما تأملت صفة من صفات الله الفائقة الوصف ، ستجد نفسك تحبه ...

ولست أقصد صفات الله التي يتميز بها وحده ، ولا يشترك فيها معه أي كائن آخر .. مثل أنه أزلي ، وخالق ، وواجب الوجود ، وحاضر في كل مكان ، وفوق مستوي الزمن ، وغير محدود ، وغير مدرك ، وعارف بالخفيات ، وفاحص القلوب والأفكار .... وما إلي ذلك من الصفات التي يختص بها جوهر اللاهوت .....
إنما أقصد حتي الصفات التي يتصف بها بعض البشر أيضاً ، ولكنها عند الله كاملة وغير محدودة .... مثل جمال الله ، وقوته ، وحكمته ، ومحبته ورحمته ، وطول أناته ..... فقد يتصف بعض البشر بالجمال والقوة والحكمة والمحبة والرحمة وطول الأناة . ولكن هذه الصفات عند الله مطلقة ، وفوق مستوي ما ندركه ...
ولهذا فإن الكنيسة في صلواتها تعلمنا التأمل في صفات الله .....
تجد هذا كثيراً في صلوات القداس الإلهي ، وبخاصة القداس الغريغوري مثل " أيها الكائن الذي كان الدائم إلي الأبد ..... غير المرئي ، غير المحوي ، غير المبتدي ، الأبدي .... الذي لا يحد ... الذي يسبحك غير المرئيين ، والذي يسجد لك الظاهرون..
ألوف ألوف وقوف قدامك ، وربوات ربوات يقدمون لك الخدمة .
التأمل في عظمة الله ، يجعلك تمجده ، وحينما تتأمل كيف أنه علي الرغم من كل مجده ، ينظر إليك ، ويوليك اهتماماً خاصاً حينئذ تحبه.....
ونري التأمل في صفات الله ، في المزامير والأجبية .
كأن يقول المرنم في المزمور " الرب رحيم ورؤوف ، طويل الروح وكثير الرحمة " " الرب مجري العدل والقضاء لجميع المظلومين " .... (مز١٠٣ :٨ ، ٦). وما أكثر التأملات في صفات الله وأعماله ، التي غني بها داود في مزاميره ، وأخذناها نحن عنه في التسبحة .... نسبح الرب في كل صباح ، فنزداد حباً له .
وفي الأجبية نقول في ختام كل ساعة من ساعات الصلوات السبع " يا من في كل وقت وفي كل ساعة ، في السماء وعلي الأرض مسجود له وممجد . المسيح إلهنا الصالح ، الطويل الروح الكثير الرحمة ، الجزيل التحنن . الذي يحب الصديقين ، ويرحم الخطاة الذين أولهم أنا . الذي لا يشاء موت الخاطيء مثلما يرجع ويحيا " .

*** تأملات في الله :**

لقد تأمل الكثير من الآباء والأنبياء والقديسين في الله ، ولم أجد هنا ما أذكره سوي تأملات القديس يوحنا ابن الرعد " المعروف بيوحنا الحبيب " حيث يناجي الله في قداسه الحبشي قائلاً : أنت الكائن من قبل تأسيس العالم وسوف تكون إلى الأبد ، لا يعرف أحد بدايتك أو نهايتك ، أنت غير محدود ولا يقدر أحد أن يحدك وملكوتك غير محدود وقوتك لا تغلب وعظمتك لا نهائية ومجدك غير مختفي ، الكل لا يقدرون أن يروك ومع ذلك فأنت ترى الكل ، ليس لك بداية ، لكنك تضع نهاية لكل شيء كل الأشياء منك وكل الأشياء بك وكل الأشياء لك ، أنت في الكل وفى عظمتك أنت أعلى من العلويين ، ومع ذلك فإنك افتقدت المتواضعين بمجيء ابنك ، في احتجابك أنت أبعد من البعيدين ، برحمتك أنت تقرب إلى نفسك البعيدين ، أنت في الكل وأنت خارج الكل ، عظمتك مختبئة فيك وقدرتك مختبئة فيك

أنت نفسك تحجب نفسك بنفسك وتخبئ نفسك بنفسك ... أخبرنا عنك ابنك الذي ولدته الذي ولد منك ، كرز لنا بأنباء عنك ، هو مكرم مثلك ، ليس هنالك يوم بينك وبينه ، وليست هناك ساعة بين الإبن وأبيه ، ليس الآب أعظم من ابنه وليس الإبن أقل من أبيه ، لا يعرف أحد ما بين الابن وأبيه ، لكن روحك القدوس الحي يعرف أعماق لاهوتك ، لقد أعلن لنا طبيعتك وأخبرنا عن وحدانيتك ، لقد علمنا وحدتك وأعاننا لمعرفة ثالوثك القدوس ، لقد حدثنا عن مساواتك غير الفاسدة وعن وحدتك غير المنفصلة وعن طبيعتك غير المتجزئة ، الآب هو الشاهد للإبن والروح القدس..... والإبن يكرز عن الآب والروح القدس ، والروح القدس يُعلم عن الآب والإبن ، لكي يُعبد الثلاثة بأسم واحد ، أنت تعلن مجدك المخفي العجيب لمن يسبحونك وتبينه لهم برحمة نعمتك العلاويون في درجاتهم والملائكة في رتبهم والساهرون في بروقهم والشاروبيم في قدرتهم والسيرافيم في المجد والكل بخوف وبرعدة يسجدون للرب القريب كأنهم بعيدون . إذ يغطون وجوههم بالبرق لئلا تلتهمهم النار الآكله ، فإنهم يغطون أرجلهم بجمر النار لئلا تحرقهم لهب القوة ، إنهم يطيرون في أربعة أركان العالم وفى أقصاء الأرجاء أمام من هو في كل أنحاء العالم ، بكلمات عظيمة منيرة عجيبة ، يدعون الواحد غير المنظور ليقدسوه ، إنهم بجنودهم وبدرجاتهم وبجماعتهم وبروتبهم يمجدونك أيها الآب ويسجدون لك ويمجدون ابنك الوحيد وروحك القدوس الحى ، كلهم معا ، يقدمون لك الشكر من أجل مجدك ..... ونحن مثلهم نشكرك ونؤمن أنك قدوساً يارب الجنود الكامل وأن السماء والأرض مملؤتان من قداسة مجدك ، فريد أنت وأبدى أزلي أيها الآب القدوس فريد أنت وأبدى أزلي أيها الابن القدوس فريد أنت وأبدى أزلي أيها الروح القدس ، ثلاثة أسماء واله واحد ، أنت قد وهبت لكل قديسيك حسب صلاحك أن يكونوا قديسين ، أنت قد خلقت كل خليقتك بكلمتك ، أنت خلقت كل الأشياء دون أن يوجهك أحد ما ، أنت تحمل الكل دون أن تكل ، أنت تطعم الكل دون انقطاع ، أنت تفكر في الكل دون أن تنسى أحد ، أنت تعطى الكل دون أن تنقص ، أنت تروى الكل دون أن تجف ، أنت تذكر الكل دون أن تنسى أحدا ، أنت تحرس الكل دون أن تنام ، أنت تسمع الكل دون أن تغفل أحد ، أنت الكريم دون أن يعطيك أحد شيئا ، الخالق الذي لا يوجهك أحد ، الملك الذي لا يقيمك أحد ، الرب الذي لا يحاكمك أحد ، الإله الذي لا يقرضك أحد ، أنت هو المعطى من خزائنك غير المحدودة ، وإذ تملأ كل مكان ، أخبرتنا عنك بالطريقة التي نقبلها ،أنت أرسلت ابنك إلينا ، فأتى دون أن ينفصل عنك ، ومشى دون أن يتحرك عنك ،كان معك وهو في الجسد ، أنه موجود حيث أنت موجود ، كان مع أبيه في السماء بينما كان مع من ولده على الأرض ، نزل دون أن ينقص من فوق أو يضيف إلى أسفل ،حبل به في البطن ومع ذلك لم تحده البطن ، لبس في البطن ومع ذلك فكان هو اللانهائي ، خالق كل جسد عاش في البطن ، الجالس على الشاروبيم ظهر في الجسد ، النار الآكله لبس الجسد ، الروح غير المنظور لبس جسداً ، وُلد من المختبئ إلى المستعلن ، ذاك الذي يكون الأجنة في البطن صار جنينا، لفوه بأقمطة ذاك المتحد بالنور ، سكن في بيوت الفقراء كفقير ، كملك أرسل سفراء ليأتوا إليه بهدايا من بعيد ، ذاك الذي يرشد البقرة لتعرف صاحبها نام في حظيرة ، نميَ

كطفل وسجدوا له كرب الكل ، مشى على الأرض كإنسان ومع ذلك عمل كإله ، جاع اختيار كإبن البشر وأقام كثيرين من الجياع أن يشبعوا من خبز قليل حسب قدرته ،عطش كإنسان يموت. وحول الماء إلى خمر ، إذ هو القادر أن يهب حياة للجميع ، نام كأبناء الجسد واستيقظ وانتهر الرياح كخالق ، تعب واستراح كمتواضع ومشى على الماء كمتعالي ، ضربوه على الرأس كعبد ، وحررنا من نير الخطية كرب الكل تحمل كل الآلام ، ذاك الذي شفى الأعمى ببصاقه وأعطانا الروح القدس ارتضى أن يبصق عليه النجسون ، ذاك الذي يغفر الخطايا اتهموه كخاطئ ، قاضى القضاة حاكموه ،ُصلب على خشبة ليبيد الخطية ،ُحسب في عداد الخطاة ليحسبنا في عداد الأبرار ، مات بإرادته ودفن بإختياره ، مات ليبيد الموت ، مات ليهب حياة للموتى ، وُدفن ليقيم المدفونين ويحفظ الأحياء ، ويطهر الدنسين ويبرر الخطاة ويجمع معنا المشتتين ويرد الخطاة إلى المجد والكرامة ، المجد والكرامة والشكر لك إلى الأبد ، يجب أن يؤمن بك الموتى الذين أقمتهم والأحياء الذين حفظتهم والنجسون الذين طهرتهم ، والآثمة الذين بررتهم ، والمشتتون الذين جمعتهم ، والخطاة الذين أرجعتهم ، نسجد لك ونمجدك يا ينبوع الحكمة وكلمة المشورة وكنز العون ومسكن البركة ومصدر الربح ونبع النبوة والمجرى العظيم وبئر الكرامة وزينة الملكوت وتاج الكهنة الطاهر ، أنت هو الملك الذي لك إكليل المجد ، الذين يسجدون لك ، أنت أصل المجد ونور الكرامة والطريق إلى الأبد ، والكنز الذي اكتشف واللؤلؤة التي وجدت والوزنة التي تضاعفت ، والخميرة التي تخمر العجين ، والملح الذي يعطى مذاق لما لا مذاق له ، أنت هو النور الذي يبدد الظلمة ، السراج الذي ينير العالم كله ،الأساس الراسخ الذي لا يتزعزع ، الحصن الذي لا يمكن أن ُيهدم ، السفينة التي لا يمكن أن تتحطم ، المسكن الذي لا يمكن أن يقتحم ، النير الهين والحمل الخفيف ، كل هذه هي يا يسوع المسيح الذي هو قوة أبيه وحكمته ، هو يفكر في الكل ويطعم الكل ، يعطى الأعمى نورا ليرى ، فاتحاً المنافذ التي كانت مغلقة ، يجعل الصم يسمعون والأذن الصماء تسمع ، ينزع ثوب البرص من الجسم ويكسو ثوب لحم ، يشدد اليد اليابسة ويجعل الرجل العرجاء تمشى ، يعيد النفس إلى جسدها ويضع الروح في مسكنها ،ُيغرق قطيع الخنازير بواسطة جمهور الشياطين ، وينزع المرض من الجسم المعتل ، يا شمس البر في أجنحتك يشرق ينبوع الخير .....

* كنت في الروح :

هكذا قال القديس يوحنا الحبيب في سفر الرؤيا " كنت في الروح في يوم الرب " (رؤ١ :١٠) فما هو معني كنت في الروح ، لو أتيح لنا أنتأمله ؟ كان في حالة روحية ، ملتصقاً بروح الله مرتفعاً بقلبه إليه ، في يوم مقدس . وفي هذا الجو الروحي ، رأي السماء مفتوحة ، وأبصر عرش الله ، والقوات السمائية تسبحه .إنها حالة روحية تذكرنا بقول القديس بولس الرسول في صعوده إلي السماء الثالثة " كنت في الجسد ، أم خارج الجسد ، لست أعلم ، الله يعلم " (٢كو ١٢ : ٢). هل الجسد يتروحن ويصير مجانسا للروح في لطافتها بفعل التصفية والجذب الإلهي ؟ هل هذه المجانسة هي التي تؤدي إلي " الرَوحنة " وإلي لطف الجسد وإختفائه أو بالتعبير العصري ترتفع ذبذبات ذراته فيختفي ويصبح شأنه شأن الآشعة فوق

البنفسجية التي لا تري لإرتفاع ذبذبتها . أم أن الأمر كإختفاء الكواكب في النهار بنور الشمس بسبب غلبة ضوئها علي حين تظل الكواكب موجودة برغم اختفائها الظاهري ....
إنها حالة إنسان كان في الروح . الروح وحدها تعمل ، والجسد معطل تماماً عن العمل معها وهي في رؤياها . ليست حواس الجسد هي التي تري ، بل حواس الروح . ولا هو الذي يسمع بل هي حواس الروح ، تسمع أشياء لا يُنطق بها (٢كو ١٢ :٤) لأن النطق الجسداني خارج عن هذا النطاق .هذا النطق الجسدي لا يعرف هنا أن يدخل في غير إختصاصه ....!
كذلك من جهة النظر .... إن الإنسان يحس وجود الله في الأوساط الروحية ، عندما يلتصق قلبه بالله ، وتتلامس روحه مع الله .إنها حالة " رجل مفتوح العينين ، يري رؤى القدير " (عد ٢٤ :٣ -٥). تذكرنا بصلاة أليشع النبي من أجل تلميذه جيحزي : أفتح يارب عيني الغلام فيري (٢مل٦). أو بقول السيد الرب لتلاميذه " أما أنتم فطوبي لعيونكم لأنها تبصر " (مت١٣ :١٦). إنه بلا شك لا يتحدث هنا عن عيون الجسد ، بل عن بصيرة الروح . وبنفس المعني نفهم قوله لهم " ولآذانكم لأنها تسمع " .....
في الأبدية نري ما لم تره عين ، ولم تسمع به إذن (١كو٢ :٩) . لأنه أسمي من حواس الجسد ، وأعلي من مستواها في الإدراك ... نراه في الروح ، وبالروح ..... فكلما ارتفع الإنسان في الروحيات، فكلما أصيبت النفس بالبهت لما تري وأستغلقت عليها الألفاظ فلم تعرف كيف تعبر وأبهم عليها الحال .
متي يعطينا الرب هذه البصيرة الروحية ، ويصبح كل منا مفتوح العينين ؟ ليتنا علي الأقل نعطي لروح الله فرصة ليعمل فينا ، وندخل في شركة الروح .....
القديس غريغوريوس أسقف نيصص ، كان أثناء خدمته للقداس الإلهي يبصر الروح القدس علي هيئة حمامة . وأحياناً كان الرب يعلن له من هو مستحقاً للتناول ومن هو غير مستحق وكثير من الآباء الكهنة ، أثناء القداسات ، يكونون في حالة روحية غير عادية ، يشعرون أثناءها بالوجود الفعلي مع الله . وفي هذا يقول الشيخ الروحاني :" ولا يمكن لأعظم عالم أن يتحدث عن هذا المنظر ونوعه ، ولا يمكن أيضا لرئيس ملائكة النور نفسه أن يعرف هذا ، فالله وحده هو منبع الأسرار ، هو الذي يعطي وهو الذي يأخذ ، هو الذي يشرق وهو الذي يضيء لنظر محبيه . هو ينبوع الحياة وفي الأذهان المضيئة ينبع شعاعه لبهجتهم ، هو الذي يوحد عقولهم معه ويغيرهم لشبهه ....".
في وقت الصلاة والتأمل ، يشعر الإنسان بالله يملأ قلبه ، ويشعر بأن الله يحيط به ، كما يشعر أنه واقف أمام الله يكلمه .
ويشعر أيضاً بأن الملائكة حوله ، وبأن أرواح القديسين أيضاً تحيط به ، بأن روحاً عميقاً في داخله يعطيه ما يقوله .....
لهذا كانت لإجتماعات الصلاة قوتها وتأثيرها ، ولهذا كانت لليالي الصلاة وسهراتها فاعلية عميقة داخل النفس وقوة غير عادية .....
نتذكر أن تلاميذ الرب فيما كانوا يصلون ، تزعزع المكان من قوة الصلاة ، أو من الوجود الإلهي أثناء الصلاة ، وأمتلأ المشتركون في الصلاة من الروح القدس (أع ٤ :٣١) .

الصلاة جعلت الرب يحل بمجده في المكان فشعر المصلون بوجود الله ، وبأن السحابة قد أستقرت علي الخيمة . هنا يشعر الإنسان بالعزاء ، وبالفرح والسلام ، ويشعر بلذة البقاء في الصلاة ، وأنه يود لو كانت الصلاة لا تنتهي . وكما قال أحد الآباء عن الصلاة : ومن فرط حلاوة الكلمة في أفواههم ، ما كانوا يريدون أن ينتقلوا منها إلي كلمة أخري في صلواتهم . الذي يشعر بلذة الصلاة ، وبوجود الله معه في الصلاة ، لا يحب أن ينتقل من جو الصلاة إلي أي جو آخر بعيد عنها . ولو انتهت صلاته ، قد يظل واقفاً ، ولو صامتاً ، يعز عليه أن ينزع نفسه من هذا الجو الروحي .... ولو يقول عبارة واحدة : لا أريد يارب أن أتركك إلي عمل آخر . ولا أريد أن أختم الحديث معك ، لكي أتحدث مع أحد سواك ...
من هنا كانت الصلاة الدائمة ، ليست كعمل تعصبي أو مجرد تدريب ، إنما رغبة في البقاء مع الله أطول وقت .....
هناك أوقات كثيرة تشعر فيها بالوجود مع الله ، ولكن وقت الصلاة والتأمل هو أعمقها وأقواها .....

*** سائح روسي :**

لم أجد أبدع من قصة ذلك السائح الروسي لكي أقدمها إليك أيها القارئ العزيز . إذ فيها يقص السائح قصته المشوقة عن اختباره لصلاة يسوع اختباراً عملياً محضاً . ويظهر في القصة جمال الحياة الأرثوذكسية الحقيقية وسمو الحياة المسيحية العملية . أما هذا السائح الروسي فهو أحد الذين اشتعلت قلوبهم بنار محبة يسوع المسيح فلم يعد يطيق الوجود بين الناس ، فذهب هائما علي وجهه يجوب بقاع المناطق الشمالية في روسيا وسيبريا لا يحمل من هم هذه الحياة الزائلة شيئا قط . وقد دون هذا السائح كيف ابتدأ بتدريب صلاة يسوع علي يد أحد الرهبان حتى وصل إلي اختبار الصلاة بلا انقطاع .
وقد اكتشفت هذه المخطوطة ضمن حيازة أحد رهبان جبل آثوس في دير القديس ميخائيل في قازان عام ١٨٨٤م :

إنني بنعمة الله مسيحي ولكن بأعمالي أري نفسي أكبر الخطاة . وإذ ُاسَمي بالسائح الذي لا منزل له أجول من مكان لآخر لا أحمل إلا سلة علي ظهري بها من الخبز اليابس ما قل أو أكثر ، والإنجيل في جراب علي صدري . ذهبت إلي الكنيسة في الأحد الرابع والعشرين بعد العنصرة لأصلي ، فسمعت من رسالة بولس الرسول الأولي إلي أهل تسالونيكي هذه الآية " صلوا بلا انقطاع" . فنفذت هذه الكلمات عن كل ما عداها إلي الأعماق وفكرت : كيف يمكن أن أصلي بلا انقطاع بينما أنشغل بمهام كثيرة لأقوم بأود حياتي ؟! رجعت إلي الكتاب المقدس فقرأت هذه الكلمات بعيني ، وفهمت منها انه يجب أن نصلي علي الدوام في كل الأوقات وفي كل مكان ! ... فكرت كثيرا ولكن لم أصل إلي نتيجة . سألت ماذا ينبغي أن أفعل ؟ وأين أجد من يفسر لي هذا الأمر ؟ لسوف أذهب إلي الكنائس ولأقصدن أشهر الوعاظ والمرشدين فربما أسمع منهم ما يلقي ضوءا علي فكري..... مضيت وسمعت عظات كثيرة مدهشة عن الصلاة . وفهمت ما هي الصلاة وإلي أي حد نحتاج إليها وما هي ثمارها ولكني لم أجد من يتكلم عن كيف تنجح في ممارسة الصلاة . وسمعت عظة عن

الصلاة القلبية وعدم انقطاعها ولكن لم يشر إلي كيفية ممارستها ، لذلك لم أستفيد كثيرا من سماع العظات فعولت علي خطة أخري بأن أتجه إلي بعض المختبرين فأناقشهم في هذا الأمر الذي ملك فكري وعقلي !
سحت كثيرا سائلا في كل مكان عن ذلك الأمر . وقيل لي عن إنسان في احدي القرى يسعي إلي خلاص النفوس ، ويخصص اجتماعاً في منزله ويقضي كل وقته في الصلاة وقراءة الكتب المقدسة ، فجريت إليه أكثر منى ماشيا ً ووجدته وأخبرته بما سمعته عنه ، وطلبت منه أن يخبرني عما يقصده الرسول بقوله " صلوا بلا انقطاع " وكيف يمكن ذلك ؟ فسكت ، ثم قال " الصلاة الداخلية غير المنقطعة هي رفه دائم للنفس البشرية أمام الله ، ولكي تنجح في هذا الأمر يجب أن تصلي كثيرا لتختبر العذوبة التي يعلمنا الله كيف نصلي بلا انقطاع ..... صل كثيرا وصل بحرارة فالصلاة نفسها هي التي ستعلن لك كيف تصلي بلا انقطاع .... لكن الأمر يحتاج إلي بعض الوقت ! . ثم قدم لي زادا ونقودا لأجل سياحتي وصرفني .
ولكن اعتراني شعور باليأس إذ أنه لم يفسر لي كما أريد ..... عدت إلي القراءة والتأمل مفكراً في كل ما قاله لي ذلك الأب ولكن لم أصل إلي الحقيقة ولست أعلم لماذا بدأت لا أنام الليل .....
مشيت ما يقرب من١٢٥ميلا ً حتى وصلت ديراً سمعت أخباره فعلمت أن هناك أباً محب طيب القلب ، فقصدت إليه فقابلني في صداقة عميقة . رجوته أن يرشدني روحياً إلي الطريقة التي بها أخلص نفسي فدهش وأجاب : سر حسب أوامر الله وأتل صلواتك فتخلص .
فأجبت : ولكني سمعت أنه ينبغي أن أصلي بلا انقطاع وهذا هو ما لست أعرفه أو اقدر عليه فأرجوك أن تفسر لي هذا الأمر . فأجاب : بأن عنده كتاباً للقديس ديمتري عن التعليم الروحي للإنسان الداخلي . فقرأت فيه أن كلمات بولس الرسول بخصوص الصلاة بلا انقطاع يجب أن تفهم كإشارة إلي الصلاة الموصلة إلي الفهم وهذا الفهم يوصلنا إلي الله . فيعيش الإنسان بذلك فيحيا الصلاة بلا انقطاع ! .
ولكن سألت عن الطريق التي بها يتجه الذهن إلي الله دواما وبدون أن ينشغل بعيداً . فأجابني الأب: " أن هذا الأمر صعب حتى علي الذين وهبوا من الله تلك العطية " ....
فلم أستفيد شيئاً . وازددت اضطرابا وقضيت الليل عنده ثم عاودت السير في الطريق العالم مدة خمسة أيام مواظبا علي قراءة الكتاب المقدس لأربح نفسي . أخيراً قابلت أحد رجال الدين عند اقتراب المساء وسألته فأخبرني أنه من دير يبعد عن المكان نحو ستة أميال ، وسألني أن أذهب معه وأخبرني أنهم يضيفون الزوار ويهيئون لهم قسطاً من الراحة . فأجبت بأن راحتي القلبية لا تستدعي راحة الجسد ، ولست أجري وراء الأكل لأن عندي الكثير من الخبز الجاف في السلة . فهدأ من اضطرابي وأخبرني بوجود أب كبير مختبر في الدير يستطيع أن يهديني الطريق الصالح علي ضوء كلمة الله وكتابات القديسين .
قلت : حسنا يا أبي إني سمعت في قراءات الكنيسة من الرسائل الأمر بأن نصلي بلا انقطاع ولكني لم أفهم كيف يمكن ذلك وسط مشغوليات العالم .

فأجابني : إن الأمر هذا١ صحيح فينبغي أن نصلي بلا انقطاع في كل مكان وفي كل زمان وليس فقط وسط المشغوليات العالمية . بل وحتى أثناء النوم أيضا حسب قول الكتاب : أنا نائمة وقلبي مستيقظ . فدهشت كثيرا ًواضطربت وازدادت غيرتي لأفهم . واستطرد الأب في الحديث : اننى أشكر الله يا ابني العزيز علي تلك الغيرة التي غرسها الله في قلبك نحو الصلاة المستمرة ، وثق أنها دعوة من الله فهدئ روعك لتتأكد من إرادة قلبك أنها تتفق مع كلمة الله الذي وهبك أن تفهم النور السماوي الذي يشع في الصلاة غير المنقطعة . إن هذا النور لا يأتي بحكمة هذا العالم ولا يأتي من الرغبة الخارجية في المعرفة . ولكن يأتي للمساكين بالروح الذين يريدون أن يختبروا كل شيء عمليا ًفي بساطة قلب .
أما عدم فهمك لكيفية الصلاة المستترة فليس فيه أي غرابة ...! . لأنه بالرغم من أنه في أكثر الأحوال تبني هذه الكتابات علي الحكمة الطبيعية . والغالبية تعظ دائما ًعن صفات الصلاة دون التكلم عن طبيعتها وطريقة ممارستها .
والبعض يتكلم عن قوتها وهباتها ، والبعض الآخر يتكلم عن الوسائل التي تمهد لها دون شرح ما يتعلق بها ذاتها .
ولكن ما هي الصلاة المستمرة ، وكيف يتعلم المرء أن يصلي ؟ مثل هذا السؤال لا تجد له جوابا عند وعاظ الوقت الحاضر ، لأنه سؤال يحتاج إلي دراية وفهم روحي ولا يحتاج إلي تعليم المدارس . كما أن الفشل في هذا الفهم وعدة الخبرة يجعلهم يستخدمون حكمة العالم غير المجدية في شرح الأمور الإلهية .فالكثير من الناس يفتكر فكرا ًخاطئا ًبأن الأعمال الصالحة هي التي تجعلنا نصلي ، ولكن الأمر علي العكس فالصلاة هي أم الفضائل والأعمال الصالحة . ومن يقول بغير ذلك فأنه يهضم حق الصلاة وقيمتها كما يخالف قول بولس الرسول إلي تيموثاوس (١تى ٢ :١) . فأطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات بالخدمات والأعمال الصالحة ولكن قبل الكل يجب أن يصلي . لأنه بدون الصلاة لا يتم عمل صالح . ولن يجد الطريق إلي الرب بدون الصلاة .
كذلك لن يفهم الحق ولن يستطيع أن يصلب أهواء جسده وشهواته بغير الصلاة . ولن يستضيء نور قلبه بنور المسيح أو يتحد بإرادة الله ما لم يشرع في اختبار حياة الصلاة الدائمة .... وأقول " الدائمة " لأنها كمال الصلاة . تعلم أولا أن تطلب قوة الصلاة حينئذ ستمارس بسهولة جميع الفضائل " . ووصلنا إلي الدير أثناء الحديث ، فسألته أن يتفضل ويخبرني عن كيفية الصلاة بلا انقطاع فقبل سؤالي بلطف وأدخلني إلي صومعته وأعطاني لأقرأ في مجلد لأقوال الآباء . واستطرد قائلا : " إن الصلاة غير المنقطعة هي مناداة اسم الرب يسوع بالشفاه وبالفكر وبالقلب مع تكوين صورة عقلية لحضوره الدائم الثابت ، وطلب رحمته خلال كل مشغولية وفي كل وقت وفي كل مكان حتى أثناء النوم " . وتغرس هذه العاطفة بترديد هذه الكلمة : " ياربي يسوع المسيح ابن الله الحي أرحمني أنا الخاطئ " .
فمن يعود نفسه علي ذلك يختبر عمق الوسائل التي تزرع الرغبة في أن تدوم الصلاة وسوف تستمر هذه الطلبة دافعة لنفسها في أعماق قلبه .

والآن اسمع ما يقوله سمعان اللاهوتي عن الصلاة بلا انقطاع . " اجلس وفي هدوء وصمت احن رأسك ، وأغلق عينك ، وتصور نفسك ناظرا إلي داخل قلبك وقل مع كل نسمة تخرج منك ، قلها بتحريك شفتيك ببساطة أو قلها فقط في عقلك محاولا أن تدع كل الأفكار الأخرى جانباً وكن هادئا صبورا وكرر هذه الطلبة في أحيان كثيرة " .
وإذ فسر لي الأب هذه الكلمات شرعنا نقرأ الليل كله ثم مضيت في الصباح إلي البلدة المجاورة بعد أن باركني وأخبرني بأن أعود إليه ليري مدي تقدمي . لأعترف له بكل شيء في صراحة . لأن التحول الداخلي لا يمكن بدون إرشاد روحي . ولما دخلت الكنيسة طلبت معونة الله . ثم شرعت في البحث عن عمل ومسكن في البلدة . لأنه لا يسمح لزوار الدير بالبقاء أكثر من ثلاثة أيام . ولأجل عناية الله بي استأجرني احد الفلاحين لأعتني بحديقته طول الصيف . وأعطاني كوخاً منفردا لأعيش فيه . فليتمجد اسم الله .... لقد وجدت مكان هادئاً وعملاً منفرداً فيه ، بدأت أتعلم الصلاة الداخلية لكني تعبت جداً في بحر أسبوع . وشعرت بتكاسل واعتراني نوم وغشيتني سحابة من الأفكار الأخرى . فمضيت حزيناً إلي أبي وأخبرته بسوء حالي ، فحياني في شوق وقال : يا أبني إنها هجمة عالم الظلمة عليك . ولكن عدو الخير لا يستطيع أن يعمل إلا ما يسمح به الله في حدود احتمالنا فليس أسوأ من أن يشعر أننا نصلي فإن هذا العدو يحاول بكافة الطرق أن يحولك عن الصلاة .... أنه يبدو لي أنك في احتياج لأن يختبر اتضاعك . لأنه علي قدر ازدياد عاطفتك لتختبر الصلاة من أعماق القلب علي قدر احتمال سقوطك في الطمع الروحي .
ثم شرع يقرأ لي من أقوال الآباء ما يلي : إذا لم تنجح بعد عدة محاولات لتصل إلي اختبار الحقيقة التي تعلمتها فأعمل ما سأقوله لك لهذه الملكة أن تردد علي الدوام هذه الكلمات بعينها " ياربي يسوع المسيح ابن الله الحي أرحمني أنا الخاطي " وأجبر نفسك علي أن تقولها دائما فإذا نجحت إلي زمن ، حينئذ سينفتح قلبك للصلاة الدائمة . واستطرد الأب قائلا : " أن هذا هو تعليم الآباء فأطع أرشادي من الآن فصاعدا وكرر صلاة يسوع ثلاثة ألاف مرة في اليوم أثناء قيامك وجلوسك ورقادك ومشيك ، وعملك وراحتك . قلها بهدوء وبدون إسراع ولا تحاول أن تنقص أو تزيد في العدد والله سيساعدك وبتلك الطريقة تصل إلي صلاة القلب غير المنقطعة " . فقبلت هذا الأمر بسرور ومضيت إلي منزلي أنفذه بمنتهي الأمانة والدقة ، فوجدت الأمر صبعاً في اليومين الأولين ولكن بعد ذلك سهل علي بدرجة أني كلما توقفت أشعر بما يدفعني علي الاستمرار ... فذهبت إلي أبي فأمر بالمزيد وأضاف قائلا : كن هادئا وجرب بأمانة حتى يعنك الله في تدريبك " .
وهناك في كوخي الموحش رددت هذه الصلاة أسبوع آخر دون أن أتضايق وتعلمت كيف أركز ذهني وكيف لا يتشتت عقلي إلي الأفكار الأخرى . وشعرت فعلا بأني إذا توقفت عن الصلاة أكون كمن فقد شيئا .... ولما قابلت مرشدي أخبرته عن فرحي وارتياحي لما أعتاده قلبي وفكري ولساني فمجد الله قائلا : أنها نتيجة طبيعية للمجهود المتواصل والروح اليقظة ، فالعَجلة يدفعها قصورها الذاتي فتستمر في السير إلا إنها تحتاج إلي زيت ليسهل حركتها كما يحسن دفعها من حين لآخر . فتأمل مراحم الله الذي أعطانا كيف ندرب طبيعتنا البشرية ".

والآن اترك لك مطلق الحرية لتصلي كيفما تريد ، فقط حاول أن تكرس أوقات يقظتك للصلاة وأن تسلم نفسك باتضاع لإرادة الرب طالبا منه المعونة . وأنا متأكد أنه لن ينساك بل سيقودك إلي طريق المستقيم " .....!

وهكذا قضيت الصيف كله في سلام مع الله وصلاة مستمرة ليسوع المسيح كما كنت أحلم في ليلي بأني أصلي . وإذا قابلت إنسان في يومي أشعر كما لو كان عزيز غالي لدي أو أقرب الأقربين إلي ... ولكني لم أشغل نفسي بالناس كثيرا . وهدأت كل أفكاري ولم أفكر في شيء إلا في الصلاة . وإذا ذهبت إلي كنيسة الدير تبدو لي الخدمة الطويلة كأنها قيصرة غير مملة وتراءي لي كوخي الحقير كأنه قصر عظيم ولم أعرف كيف أعبر عن شكري أعبر عن شكري لله الذي أرسل لي أنا الخاطئ التائه الهداية والإرشاد إذ قد غمرتني سعادة الصلاة حتى أني كنت أقطع ما يقرب من الأربعين ميلا يوميا بدون تعب . وإذا هاجمني البرد أنادي بأسم ربنا يسوع المسيح فأشعر بالدفء . وحين مرضت بالروماتزم كنت أصلي باسم يسوع فأنسي كل آلامي . وإذا أهانني أحد كان علي فقط أن أفكر في صلاة يسوع فيتلاشي الغضب وأصبحت إنسان في نصف وعيه ، لم أعد أهتم بشيء مما في معيشة هذا العالم المضطربة بل كل ما أريد هو أن أصلي بلا انقطاع وأن أفرح بالرب دائما . لقد سحت في بقاع كثيرة مختلفة بينما صلاة يسوع ترافقني وفكرت في تحويل غايتي إلي السياحة في سهول سيبريا الفسيحة حيث يسهل علي الاختلاء وحيث أقصد معبد القديس " اينوسنت " . وبعد وقت ليس بطويل شعرت كما لو إن كلمات الصلاة تخرج من شفتي لتدخل إلي قلبي في توافق عجيب . أعني أن كل كلمة تقال تكون كما لو كان ينطلق بها القلب مع دقاته . وحينئذ أبطلت تحريك شفتي لأن قلبي ينطلق وتمنيت لو أري سيدي يسوع المسيح فأطرح نفسي عند قدميه وأطوقها وأقبلهما شاكرا بالدموع لأنه وهبني بمحبته أن أعيش باسمه في سلام أنا المخلوق الخاطئ غير المستحق . وفي هذا يقول الشيخ الروحاني : " لو تأمل العقل النشيط إلي داخل هذه المملكة الروحانية ينظر ذلك الذي هو الكل في الكل ، وإذا أقترب إلي الصلاة ينظر إشراق أقنومه ويضيء علي النفس حسن طبعها ، وتنظر النور الإلهي المشرق فيها ، ينظر العقل نورا إلهيا لابساً الكل بغير مانع ، وبه يشاهد كل الخليقة من أقصاها إلي أقصاها فيري السماء والبحار والأعماق وكل ما فيها ويتداخل من نور إلي نور أفضل ، أعني بذلك يتداخل في النور ويتغطي حتي يرتفع الكل من قدام نظره ، والروحانيون أيضا وعوالمهم ونظر أقنومه ، وبهذا النور تنظر النفس لكل نفس وهذا ما يعرف " بالرؤيا " أو كشف الحجاب عن عيون الروحانيين ".

*** رؤية الله :**

إن الإنسان المتأمل العارف لا يري حيثما توجه إلا الله . فكل مظاهر الكون رموز من حيث تشير إلي الحقائق والتجليات الإلهية . فما ثم شيء عادي وإنما كل شيء في نظر المتأمل يدعو إلي الدهشة ، والوجود كله عجب لأن كل ما يبدو له يحدث عنده ذكرا ًلله ويكشف حكمة ويجلي أمراً .... أي أن حكمة خلق الله للكون هي أن يلوح للخالق ويظهر ويجلي للعيون غيبه المنزه ...المستور ، فأينما توجه الإنسان ببصره في الوجود يهتف في خشوع .

وكلما عرفت الكون أكثر علمت أنه لا شيء إلا الله ، وما تري حولك إلا عموم التجلي ... فكل ما تذهب إليه فكرة التجلي هو أن كل مظهر عبارة عن رمز له مستند إلهي ، ومن هذا القبيل فعليك أن لا تحتقر أحداً ولا شيئاً من خلق الله فإن الله ما أحتقره حين خلقه .
ونحن نري الله أيضاً من خلال أعماله وما يكشفه لنا في زيارات النعمة المقدسة ، ولكن لا نستطيع أن نعاين الله ونحن بهذا الجسد المادي .
متي يارب يحين وقت رحيلي إلي ملكوتك ؟ متي أحظي بمعاينة جمالك ؟
رائحتك التي أتنسمها تسكرني بالحياة والدهش ، هذا رغم أنني لم أراك بعد ، لأنه مكتوب لا يراني إنسان ويعيش (خر ٣٣) .
حسناً ، لو عملت بهذا التحذير فلن أراك . لكن لأموت ياربي وأراك . لأراك ياربي قبل أن أموت ، فعندما أريد أن أحيا . أريد أن أموت " لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح " (في١: ٢٣) . إنني أشتهي الموت لكي أراك . إنني لا أريد العيش بعد لكي أحيا بك .أترانا يارب سنعرفك إذن في الملكوت الأبدي ؟ وسننظرك حينذاك وجها لوجه كما قال ابنك بولس أراني حقا حائرا أمام عبارة " وجها لوجه " .
أننا في الملكوت علي الرغم من القيامة الممجدة ، وما سنلبس من أجساد نورانية روحانية ، لابد أن سنظل كما نحن بشراً محدودين .....
ستكشف لنا شيئا عن ذاتك الذي لم نكن نعرفه في العالم ، فنسر بذلك ونفرح ، ثم تكشف لنا أكثر فأكثر ، علي قدر ما نحتمل .
وقد تكشف لنا أكثر فتصرخ نفس كل واحد منا وهي مريضة حبا " كفانا كفانا " ....
وتظل أنت توسع في قلوبنا ، وتوسع في أرواحنا لنستوعب عنك المزيد ... وتظل أنت يارب كما أنت ... غير محدود ... ونظل نحن كما نحن علي الرغم من اتساعنا ، محدودين ، نعرف عنك بعض المعرفة ....
ويطول بنا الزمن في الأبدية ، ونحن نستمتع بمعرفتك ، نذوق وننظر ما أطيب الرب ، ونكتشف كل حين شيئاً جديدا عنك ، فنتغذي بهذه المعرفة الحلوة المشعبة ولكننا لا يمكننا أن نلم بك كلك . فرؤية الذات مستحيلة (١يو٤ : ١٢) ولكن رؤية أنوار مجلي الذات ممكنة أما الذات فخفاء مطلق . وفي هذا يقول الشيخ الروحاني : وأولئك الذين بوقاحة يريدون أن يفحصوا جوهر طبيعة الله التي لا بداية لها لهذا يرثون هلاكا أبديا ويحصدون من تجارتهم مرارة وويلا . ويقول أيضاً القديس يوحنا ابن الرعد : لا يقدر أحدا أن يعرفك أو يراك ، انت تعرف ذاتك.

* وصف الله :

عظيم هو سر التقوي الله ظهر في الجسد ، فإذا لم نكن نستطيع أن نري الله ، لكننا نستطيع أن نري ابنه الكلمة المتجسد ، ولكن كيف نستطيع أن نراه ونحن لم نكن موجودين عندما أتي إلي العالم لفداء البشرية .... لقد تم العثور علي خطاب مكتوب إلي بوبليوس لنتولس يقال انه كان معاصرا لبيلاطس وأنه كتب إلي السناتس الروماني ، وفي هذا المكتوب وصفاً مفصلاً للسيد المسيح وهذه ترجمته: وجد في وقتنا هذا الرجل " يقصد المسيح " يعيش

عيشة فاضلة يدعونه رسول الفضيلة وتلاميذه يقولون انه ابن الله خالق السماء والأرض وكل ما يوجد فيهما ..... بالحقيقة أن كل يوم نسمع أمورا عجيبة عن يسوع هذا فيقيم الموتي ويشفي السقماء بكلمة واحدة وهو معتدل القامة وجميل المنظر جداً ووجهه ذو هيبة هكذا حتي أن الذين ينظرون إليه يشعرون بالغرام المقدس لأنهم يحبوه ويخافوه ، وشعر رأسه نازل لحد أذنيه منسدل علي كتفيه ، وهو بلون التراب إنما يفوق عليه ضياء وفي وسط جبينه غرة كعادة الناصريين . أما جبينه فمبسوط كثير الصفاوة ووجهه ليس فيه تجعد وعلامة البته . وفخذاه بغاية الإعتدال . وأنفه وفمه لا يعبران بحسن في أحد ومنظره يفيض خشوعا وفرحا وعيناه كأشعة الشمس ولا يقدر أحد أن يحدق بنظره إليه من كثرة الضياء . وإذا وبخ أرهب وإذا أنصح أبكي ويجعل الجميع يحبونه لأنه ذو سماحة وهيبة . ويقولون انه لم ينظر قط ضاحكا بل باكيا . وذراعاه ويداه زائدة الجمال . ففي رؤيته وشكله هو أجمل إنسان يمكن تخيله ومشابه بمقدار عظيم لأمه التي هي أجمل فتاة يمكن مشاهدتها .....

* قائمة المراجع :

حياة الرجاء . البابا شنودة
سمو الرهبنة الأنبا متأوس
الوجود مع الله . البابا شنودة
اليقظة الروحية . البابا شنودة
مرقس الرسول . البابا شنودة
المحبة قمة الفضائل . البابا شنودة
مارمرقس . القمص بيشوي كامل
السر الأعظم . مطصفي محمود
من هو الإنسان . البابا شنودة الثالث .
بستان الرهبان مطرانية بني سويف .
إنطلاق الروح . لقداسة البابا شنودة الثالث .
الجمع بين رأيي الحكيمين . أبو نصر الفارابي .
شهيدات الأسكندرية أبناء البابا كيرلس السادس .
الله فردوس نفسي . القمص تادرس يعقوب ملطي
حياة الصلاة الأرثوذكسية . للأب متي المسكين .
تاريخ الفراعنة . الشاب مايكل يوسف سلوانس يوسف
الشيخ الروحاني . مطرانية ملوي وأنصنا والأشمونين
الدليل الصحيح في تأثير دين المسيح .القس منسي يوحنا .
سقراط أعظم فلاسفة عصره . الشاب مايكل يوسف سلوانس يوسف

الفهرس

مقدمة ٢
البحث عن الله ٣
الإنطلاق لمعرفة الله ٣
البدء في العلاقة مع الله ٤
زيارة النعمة ٥
طبيعة العلاقة مع الله ٦
العلاقة الخفية ٨
يستجيب لك الرب ٩
حبك أطيب من الخمر ١٠
الوجود مع الله ١١
مشاعر الوجود مع الله ١٢
صفات الله ١٣
تأملات في الله ١٤
كنت في الروح ١٦
سائح روسي ١٨
رؤية الله ٢٢
وصف الله ٢٣
قائمة المراجع ٢٤